عنوان المحاضرة: نظرية النظم وعلوم البلاغة (المعاني-البيان-البديع)

المحاضرة السادسة: النظم وعلاقته بعلم المعاني.

توطئة:

يلحظ الدارس لكتاب دلائل الإعجاز الجرجاني ميزته التركيبية المستقاة من التراث اللغوي العربي؛ فهو كتاب بلاغي لجل مواضيع تتناول علم المعاني وأنماطه، من أحوال الإسناد، وقضايا الفصل والوصل، والتقديم والتأخير، وأساليب الخبر والإنشاء فأوضح صاحب نظرته في نظم الكلام، و مقتضياته الدلالية، وهو ما يسمى بنظرية النظم عنده؛ بدءا بنظام التعليق والإحالة والربط ثم قواعد نظم الاستعمال.

وإن كانت مباحث الكتاب تتناول قضايا علم المعاني من منطلق التأسيسي لنظرية النظم في علم المعاني، فهذا لا يفصلها عن بعدها النحوي المتأصل ، بل إن علم المعاني ليس إلا فلسفة النحو بغيتها الوقوف على خصائص أساليب الكلام. فكيف تقرأ هذه القضايا البلاغية الاستعمال، والنحوية المرجع؟، وما دورها في تحديد وظائف الكلام؟. وهل ما ذهب إليه الجرجاني يفضي إلى نظرية لسانية عربية حديثة يتجلى فيها البعد اللساني الوظيفي والتداولي الحديث وفق ما يتناسب والطابع اللغوي العربي؟ وكيف تستثمر جهده في كتاب دلائل الإعجاز المختص بعلم المعاني ؟.هذا ما سنعالجه في هذه المحاضرة.

– قضايا علم المعاني في كتاب الجرجاني:

في كتابه نجد قضايا معينة أولى لها الجرجاني –رحمه الله–اهتماما بالغا؛ بالوصف والشرح، مبينا أهميتها في تراكيب الكلام واستعمالاته. ولنا في الشطر أن نبينها كما يلي:

– **التقديم والتأخير**: وعنه علق المؤلف قائلا: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ، عن مكان إلى مكان[1]، فالتقديم والتأخير أسلوبان بلاغيان دلالتهما عن "التمكن في الفصاحة وحسن التصرف في الكلام، ووضعه في الموضع الذي يقتضيه المعنى"[2]، لا ريب أن اهتمام الجرجاني وعنايته بهذا القسم من علم المعاني؛ لم تنشأ عن صدفة، بل إن وقوعه وكثرة استعماله ضمن كلام النحويين والبلاغيين؛ عزز من أهميته؛ كأسلوب كلامي وجب الوقوف عليه جملة وتفصيلا. وللتقديم أحوال ثابتة لا تتغير، وهي:

1–عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص143

2–.يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية، علم المعاني، علم البيان، علم البديع، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة عمان، الأردن، الطبعة الأولى (1427هـ، 2007م)، ص97

"1-تقدم العلة عن معلولها عند القائلين بها؛ كتقدم الكون عن الكائنية والعلم عن العالمية.

2-التقدم بالذات؛ كتقدم الواحد على الاثنين.

3- التقدم بالشرف؛ كتقدم الأنبياء على الأتباع.

4- التقدم بالمكان؛ كتقدم الإمام على المأموم.

5- التقدم بالزمان؛ كتقدم الأب على الابن"[1].

وفي حالاته الأخرى المتغيرة لدواعي معينة؛ حيث يقدم فيها المسند، و يؤخر المسند إليه، وهي: **أ- تقديم المسند**: الأصل في استعمال الكلام أن يؤخر المسند: وفيه استثناءات لدواع معينة، وهي:

1- التخصيص؛ كقولك: ((الاجتهاد أنا أهله))، فالمسند هنا: (الاجتهاد وقدم لداعي التخصيص المباشر. والمسند إليه: ((الضمير البارز: أنا)).

2- التنبيه؛ مثل: ((تهاونك يا خالد)) فالمسند هنا: (تهاونك)، والمسند إليه (خالد) وتؤول بعبارة (يا خالد احذرتهاونك).

3- التشويق؛ كقولنا: ((نجح ثلاثة طلبة وهم: محمد، صالح، وأنت يا عمر)). نلحظ ورود عمر في القائمة الأخيرة كتشويق له.

4-التفاؤل: ((ممتاز عملك فريد ستنجح بإذن الله تعالى)) المسند إليه توسط الكلام (فريد) وكلمة (ممتاز) للتشجيع والتفاؤل وهي المسند.

5-الإفادة؛ وتكون بدلالة الاختصار المفيد؛ مثل: ((اقرأ تتعلم))؛ فالمسند: محذوف دل عليه ضمير المتكلم في الفعلين، المسند إليه (الفعل اقرأ، أو الفعلين معا).

6- التأنيب والجزر؛ مثل: ((بطلت أعمالك يا حاسد))؛ فالمسند: (الحاسد)، والمسند إليه: (بطلت). والشيء الملحوظ في هذه الأحوال للتقديم والتأخير أنها متغيرة بعكس ما أشرنا إليه في الحالات الستة الأولى.

وهذا التغير الحاصل في هذا الأسلوب ربما الأصل فيه كما قال الجرجاني: (واسع التصرف، بعيد الغاية) بمعنى متغير الاستعمال لدواعي المتكلم مراعاة للمخاطب وأحواله في الكلام.

1- يوسف أبو العدوس ، مدخل إلى البلاغة العربية، علم المعاني، علم البيان، علم البديع ،مرجع سابق، ص97

- **الفصل والوصل**: يوضح الجرجاني أهمية هذا القسم من علم المعاني في قوله: "اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها، والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه"[1]، والفصل والوصل هما أسلوبان بلاغيان رديفا الأساليب الأخرى كأسلوب التقديم والتأخير. فالوصل: "عطف جملة فأكثر على جملة أخرى بالواو خاصة، لصلة بينهما في المبنى والمعنى، أو دفع للبس يمكن أن يحصل"[2]، والفصل: "ترك العطف، إما لأن الجملتين متحدتان مبنى ومعنى، أو بمنزلة المتحدتين، لأنه لا صلة بينهما في المبنى أو في المعنى "[3]. عن الوصل؛ نحو قولنا: ((نجح المجتهد في دراسته ونال مرتبة راقية من العلم))؛ فالجملة الأولى دلالتها في حال من أحوال المقصود بالقول وهو (المجتهد)، وتلتها الجملة الثانية دالة هي الأخرى على حال المجتهد، وترتبط بسابقتها دلالة ومبنى، والواسطة بينهما في التركيب هو حرف الواو العاطفة. وفي الفصل؛ نقدم: ((انتصر المسلمون في معركتهم. عاد المقاتلون إلى بلادهم))؛ نلحظ التباين بين الجملتين الأولى والثانية؛ فالأولى بينت حال المسلمين في المعركة، في حين أن الثانية تكلمت على طرف آخر لا صلة بالمسلمين، وهم (الرجال)، ومن الناحية التركيبية الجملة الثانية هي جملة ابتدائية استئنافية لا صلة لها بالأولى.

-**الخبر والإنشاء**: في هذا الباب لم يعنون الجرجاني للخبر والإنشاء بمسمى واضح، أو عنوان ظاهر، بلخصه بمسائل لها صلة بأساليب الخبر والإنشاء؛ كحديثه عن النفي، ومسائل استعمال (إنما)، والتوكيد، وحديثه عن الاستعارة، والكناية، والتشبيه، والمجاز. ومن حديثه عن الخبر قوله: "أول ما ينبغي أن يعلم منه أنه ينقسم إلى خبر هو جزء من الجملة لا تتم الفائدة دونه، وخبر ليس بجزء من الجملة ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له. فالأول خبر المبتدأ كمنطلق في قولك: زيد منطلق. والفعل كقولك: خرج زيد. فكل واحد من هذين جزء الجملة وهو الأصل في الفائدة. والثاني هو الحال كقولك: جاءني زيد راكبا. وذاك أن الحال خبر في الحقيقة من حيث أنك تثبت بها المعنى لذي الحال كما تثبت بخبر المبتدأ للمبتدأ، وبالفعل للفاعل، ألا تراك قد أثبت الركوب في قولك: ((جاءني زيد راكبا)) لزيد إلا أن الفرق أنك جئت به لتزيد معنى في إخبارك عنه بالمجيء، وهو أن تجعله بهذه الهيئة في مجيئه، ولم تجرد إثباتك للركوب.."[4]. الواضح من كلامه مقصده البلاغي في تحديد وظيفة الخبر والإنشاء دلاليا، وأثر ذلك لدي المتلقي والسامع؛ وهو مثاله في تقسيم الخبر إلى خبر بمثابة جزء من الجملة وجوده ضمنها يحقق فائدة، وخبر ليس بجزء من الجملة يكون مرادفا لخبر سابق ووجوده ليس ضرورة؛ فمثال عن الأول: الخبر للمبتدأ:

1- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص232

2- يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية،مرجع سابق ص 119

3- يوسف أبو العدوس: المرجع نفسه، ص 119

4- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص191.

زيد منطلق، والثاني: جاءني زيد راكبا، فالأول وظيفته تحقيق الإخبار؛ لأنالمبتدأ بدونه يظل منهما، أما الثاني: وظيفته الزيادة في توظيف المعنى، وهو لا يمثل ضرورة في ذكره ضمن الجملة.

-**تخصيصه لبعض القضايا دون غيرها**: لم يستثن عبد القاهر الجرجاني مباحث بلاغية أخرى ضمن كتابه؛ بل تعدى مباحث علم المعاني، وانتقل إلى علم البيان؛ كحديثه عن الاستعارة والكناية، وكان كتابه شروحا وتفسيرات المباحث علم المعاني، وخص فيه قضايا محددة؛ ((التقديم والتأخير، والوصل والفصل، وأسلوبي الخبر والإنشاء))؛ لأن هذه القضايا تمثل أحوال الإسناد في نظم الكلام ومعرفة خصائصه التعبيرية. وهذا ما توحي إليه نظرية النظم؛ التي خصها بوافر كلامه ضمن كتاب دلائل الإعجاز.

- **قراءته لقضايا علم المعاني، ومرجعه في ذلك**: الجرجاني اعتمد نمطية الشرح والقياس والتفسير المنطقي في تقديمه لقضايا علم المعاني مواضيع كتابه نحوية من جانب الدور الوظيفي التركيبي الأصلي، وبلاغية من جانب الاستعمال في تحقيق الأداء الكلامي؛ قدم قراءته وفق نظرته الجديدة والمتمثلة في نظرية النظم؛ وكأنه استنطق قواعد النحو وكساها رؤية وظيفية بلاغية جديدة؛ تعتمد المقارنة بين الاستعمال القاعدي الأول والتحول الكلامي في أساليب كلام العرب. فكان محاورا للأصل الكلامي النحوي؛ ومجددا لمنفذ كلاميا بلاغيا يعبر عن قراءة فلسفية تحولية ضمن محطات البلاغة العربية. فقد تبنى آلية موازية لعلوم المنطق في قراءة التراث النحوي والبلاغي معا أفضت 'نظرية في اللغة' بمثابة انطلاقة نحو قراءة جديدة.

- **قضايا علم المعاني؛ بين النحو والبلاغة**: ما من علم وإلا له منطلقات نظرية وبواعث فكرية؛ فلا تخلوا مباحث البلاغة، وإن تعددت من أواصل النحو؛ فقضايا علم المعاني لا تخرج عن التعريف لها من كونها فلسفة النحو ومعانية المكنونة ضمن نسق الكلام، وغايته المنشودة الوقوف عن المؤول من الكلام ومعرفة خصائصه البلاغية، وتتبع أحوال التركيب من تقديم وتأخير ، ووصل وفصل، وكل ما يؤثر في انعطافات العملية الكلامية بين الفاعل ((القائل))، والمتلقي ((المستمع)). ومنه؛ فهذه القضايا في أصلها ما اتفق عليه العرب في تنحية كلامهم ونظمه، فهي قواعد النحو . فإن بحثنا في طبيعتها الوظيفية كمفردة وجملة؛ في قواعد نحوية ذو وظيفية تركيبية لا تخرج عن نظامها النحوي. وإن نظرنا إليها من ناحية جمالية أدائية؛ فهي قواعد بلاغية الهدف منها الوقوف عن خصائص نظام الكلام ضمن عملية التواصل بين المتكلم والسامع أو المتلقي. والمستخلص هنا أن قواعد علم المعاني نحوية التركيب بلاغية الاستعمال.

ثانيا: النظم وعلاقته بعلم البيان.

تهدف هذه المحاضرة إلى بسط جماليات النظرية البيانية عند عبد القاهر الجرجاني أحد أئمة العربية، فهو واضع القواعد النظرية للمعاني والبيان في كتابيه القيمين "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وقد أولى ألوان البيان الثلاثة (التشبيه والاستعارة والكناية) أهمية ، و نظرته البلاغية فيها عمق وإدراك يميز النظرية البيانية العربية، فالتشبيه عنده يجمل بدقة الفكر، والاستعارة تنطوي على تأليف ونظم ينفرد بها السياق التميز بالترتيب النحوي المؤدي للمعنى التصويري المرغوب إيصاله للمتلقي في قالب جمالي مؤثر، والكناية نوع بياني ينضوي على إثبات المعني بالدليل والبرهان، ووظيفتها الدلالية ميزان الأصالة المبدع وكفاءته، وفي كل هذه الألوان البلاغية خصائص جمالية تنفرد بها النظرية البيانية الجرجانية المتسمة بالتأمل العميق والتأثير الحي المتجدد.]

أهم موضوعات أسرار البلاغة" التشبيه والاستعارة والتمثيل، وهي العناصر المجازية التي تشكل الصورة الأدبية إلا أن عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) في مقدمة الكتاب تعرض لبعض الأصناف البديعة كالتجنيس والسجع والحشو، متوخيا في ذكرها إبطال أن يكون الحسن فيها لمجرد اللفظ دون المعنى، محاربا بعد ذلك التيار اللفظي الذي حفل بالجناس وغيره من البديعظنا منه أن مادته وقوامه إنما هو في الألفاظ وحدها، دون أن يكون للمعنى في ذلك نصيب، وبذلك رد للمعني دوره عادا الألفاظ تابعة للمعاني، مثبتا أن الجمال للنظم والصياغة مع ملاحظة المعنى، غير أن البيان كان له الحظ الأوفر والأغزر ضمن اهتمام عبد القاهر، وسأعرض فيما يلي آراءه البلاغية في الألوان البيانية الثلاثة ومدى جماليتها، ثم أخلص إلى استنتاج أهم الخصائص الفنية والجمالية التي تتفرد بها ضمن التعبير الأدبي المؤثر فيالمتلقي.

- ضوابط الصورة التشبيهية الجرجانية:

جعل عبد القاهر التشبيه على ضربين: أحدهما: أن يكون تشبيه الشيء بالشيء من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأول كالتشبيه من جهة الصورة إلي تميز الجسم عن غيره وقدم أمثلة من حيث الشكل والهيئة واللون،... ثم التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة، وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت

الحواس كتشبيه بعض الفواكه بالعسل والسكر، واللين الناعم بالخز، فالتشبيه في هذا كله واضح لا يجري فيه التأويل، ولا يفتقر إليه في تحصيله [1] وهذا النوع هو التشبيه الصريح أو العادي.

وثانيهما: هو أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول، والتأول يكون بإرجاع وجه الشبه إلى معنى يكون متحققا في الطرفين بوجه من التلطف والحيلة، كقولك: هذه حجة كالشمس، فالحجة كالشمس من جهة ظهورها، وهذا التشبيه لا يتم إلا بالتأول وذلك بأن تقول: حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام، ألا يكون دونها حجاب ونحوه، مما تحول بين العين ورؤيتها، والشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول، لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على الحكم، قيل هذا ظاهر كالشمس، فلا يشك ذو بصر أن الشمس طالعة إذا كانت كذلك[2].

وإن طريقة التأول تتفاوت، فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه، حتى أنه يكاد يداخل الضرب الأول ويشابهه مثل حجة كالشمس في الظهور، ومنه ما يحتاج إلى قدر من التأول كقولهم: ألفاظه كالعسل في الحلاوة، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجه إلى فضل روية ولطف فكرة مثل: "هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها" [3]وهذا ما يطلق عليه التمثيل.

والفرق بين النوعين أن التشبيه يطلق على الضربين كليهما، والتشبيه عام أما التمثيل فإنه أخص منه، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا[4] ففي قول ابن الخطيم: [5]

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعنقود ملاحية حين نورا

فهذا تشبيه حسن، ولا نقول هو تمثيل لعدم حاجة وجه الشبه إلى تأول. بينما قول ابن المعتز:

اصبر على مضض الحسو دفإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضهـــــا إن لم تجد ما تأكله

فهو تمثيل لأن تشبيه الحسود إذا صبر عليه وسكت عنه، وترك غيضه يتردد فيه ويعتمل في صدره بالنار التي لا تحمد بالحطب أو الوقود حتى يأكل بعضها بعضا مما يجعل التعبير يحتاج إلى تأول بين، ورأي عبد القاهر في

1- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، ص 72.

2- عبد القاهر الجرجاني ،المصدر نفسه، ص 72.

3-عبد القاهر الجرجاني ،المصدر نفسه ، ص 74-75.

4-عبد القاهر الجرجاني ،المصدر نفسه ، ص 75.

5-عبد القاهر الجرجاني ،المصدر نفسه، ص 75.

التمثيل يختلف عن رأي الجمهور، إذ أنه يرى أن التمثيل ما كان الوجه فيه محتاجا إلى تأول أي منتزع من لازم الصفة، ولا يكون كذلك إلا إذا كان وجه الشبه فيه منتزعا من متعدد سواء أكان حسيا أو غير حسي.

والتشبيه الذي هو أولى أن يسمى تمثيلا لبعده عن التشبيه الصريح الظاهر، ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر، حتى أن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقليا محضا، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر[1]، إذ كلما كان التشبيه موغلا في العمق والحاجة إلى الفكر احتيج فيه إلى تركيب جملي أكبر وأشمل، كقوله تعالى : " إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس" [2] وقد كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت، وهي إن كان دخل بعضها في بعض، حتى كأنها جملة واحدة، ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، ولا حذف شيء منها، فلو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه[3]، وينبغي أن يكون الترتيب الجملي متميزا بتداخل عناصره وكذا عمق معانيه.

ويشير عبد القاهر إلى وجوب تقدم المشبه به في الجمل التي يضرب بها المثل، ولا يمكن حذف المشبه به والاقتصار على ذكر المشبه، والجملة إذا جاءت بعد المشبه به، لم تخل من ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون المشبه به معبرا عنه بلفظ موصول وتكون الجملة صلة له، كقوله تعالى : " مثلهم كمثل الذي استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله..." [4]

والثاني: أن يكون المشبه به نكرة، تقع الجملة صفة له، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: "الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة" والثالث: أن تجيء الجملةمستأنفة، وذلك إذا كان المشبه به معرفة ولم يكن هناك (الذي) كقوله تعالى : "كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ..." [5]

ويتفرد عبد القاهر بإبراز الجانب النفسي والتأثير الإجمالي للتمثيل، وإن للتمثيل عنده مظهرين، أحدهما: أن يظهر المعنى ابتداء في صورة التمثيل، والآخر: ما اتفق العقلاء عليه أن "التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورة الأصلية إلى صورته، كساها وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من

1-عبد القاهر الجرجاني ،أسرار البلاغة ، مصدر سابق، ص 87.

2- سورة يونس، الآية:24.

3- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص87

4- سورة البقرة، الآية:17.

5- سورة العنكبوت ، الآية: 41.

نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا" [1]

وحين نتأمل قول أبي تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت ، أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

فقد نشر المعنى حلته، وأظهر المكنون من حسنه وزينته، واستكمل فضله في النفس ونبله واستحق التقديم بالبيت الأخير، وما فيه من التمثيل والتصوير [2]

فجمالية النظرية البيانية عند الجرجاني في إطار التشبيه تمتد إلى أغوار اللغة ودررها، وأول الجمال أنس النفوس مع هذه التركيبات التشبيهية إلي تنقلنا من العقل إلى الإحساس أو من الخفي إلى الجلي، وما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، ونلمح هنا هذا التمازج الرائع بين الذوق المرهف الأصيل في النقد والتعمق في غايات الكلام والمدرك في الوقت نفسه لتأثير جمالية التصوير البلاغي البياني من جهة، ومن جهة أخرى وبين ذهن ناقد يرجع الجمال في التشبيه والتمثيل إلى قدرته التصويرية على تقديم المعنى أمام الأعين وفي الأذهان، مما يحدث الاقتران بين المعنوي والحسي وبين المجرد والملموس وهذا ما ينتج الجمالية والإبداع اللذين يحققان المتعة الحية النابضة بزخم التجدد، وهذا التوجه يمثل: "دقة بالغة في إدراك الحقائق الأدبية، بل الحقائق النفسية، إذ تنبه إلى أن الإنسان يتمثل الحسيات بأقوى مما يتمثل العقليات لتقدمها في مدركاته ولشدة ألف النفس لها، حتى لتصبح كأنها عشيرة أو صديقة " [3]

ضوابط التصوير الاستعاري عند الجرجاني:

من مباحث النظرية البيانية الجرجانية الاستعارة وحدها عنده " أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره الشبه وتحريه عليه..." [4]

1- عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص 93

2- ، عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة، مصدر سابق ص 100

3- شوقي ضيف – البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ص 198.

4- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، تقديم: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، ط3 ،1413هـ-1992م ، ص 67.

كما تناولها في أسرار البلاغة وفصل الشرح فيها مبينا أقسامها بأوجه متعددة فقال: " اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل عليه الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعارية" [1]

وقد بين عبد القاهر أن الاستعارة وإن كانت في الظاهر من صفة اللفظ، فإن حقيقة الأمر أن القصد بها يكون إلى المعنى، بإثبات صفة الشجاعة عندما نقول : جعلته أسدا، وجمال الاستعارة يعود إلى ما توخي في جملتها من النظم ووضع للكلام بترتيب وتركيب خاص، ومع أن المجاز أعم من الاستعارة، والتشبيه كالأصل فيها، وهي شبيهة بالفرع له، إلا أنه درس الاستعارة أولا وقدمها على الألوان البيانية الأخرى مما جعلها تحتل مكانة رفيعة بين فنون القول المجازي فهي : "أمد ميدانا، وأشد افتنانا ، وأكثر جريانا، وأعجب حسنا وإحسانا، وأوسع سعة وأبعد غورا، وأذهب نجدا في الصناعة ، وغورا، من أن تجمع شعوبها وتحصر فنونها وضروبها ، وأسحر سحرا، وأمالا بكل ما يملا صدرا، ويمتع عقلا، ويؤنس نفسا، ويوفر أنسا، وأهدى إلى أن تهدى إليك عذارى قد تخير لها الجمال وعن بها الكمال..." [2]

ويتكامل المعنى عند عبد القاهر بتطبيق نظرية النظم إلي ترتبط بالسياق والتركيب النحوي، كالألفاظ "فقد وصل بين اللفظة في الاستعارة والنظم، وأكد أن الأوصاف إلي تضاف إلى اللفظة ليست إلا أوصافا للمعنى الذي تدل عليه" [3]

كما فرق بين الاستعارة المفيدة وغير المفيدة، وفيما يرد فيها وجه الشبه حقيقيا وما يكون عقليا، وأشار إلى الاستعارة الحسنة، والاستعارة المعيبة والمستهجنة حيث يقول:" اعلم أن من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها الفضيلة وان تتفاوت التفاوت الشديد، أفلا ترى في الاستعارة العامي المبتذل كقولنا رأيت أسدا ، ووردت بحرا، ولقيت بدرا، والخاصي النادر الذي لا نجده إلا في كلام الفحول، ولا يقوى عليه لا أفراد الرجال كقوله:... وسالت بأعناق المطي الأباطح [4]

"أراد أنها سارت سيرا حثيثا في غاية السرعة، وكانت السرعة في لين وسلاسة كأنها كانت سيولا وقعت في تلك الأباطح فجرت فيها " [5]

1- عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة، مصدر سابق،ص 22

2- عبد القاهر الجرجاني :أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص 32

3- أحمد عبد السيد الصاوي ، مفهوم الاستعارة، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط1، 1988م ص 83

4- ديوان كثير عزة ص 525 ، وشطره الأول هو: أخذنا بأطراف الحديث بيننا ، نقلا عن إميل يعقوب - شواهد اللغة العربية ، المجلد 2، ص 102

5- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق،ص 74.

ثالثا: نظرة الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى علم البديع:

وضع عبد القاهر الجرجاني (البديع) موضعه الحقيقي من علم البلاغة؛ فقد جعل بعض فنونه -كالمزاوجة، والتقسيم، والعكس - من النمط الأعلى من النظم، وقد علمت أن النظم هو أساس البلاغة التي تفرعت منها مسائل المعاني، وصور البيان، وقيم الجمال البلاغي المعنوية منها واللفظية على حد سواء.

وقد كانت ألوان البديع حتى عصر عبد القاهر الجرجاني داخلة في إطار علم البيان من حيث الدراسة والتصنيف، بل إن بعض صور البيان كالاستعارة والتمثيل كانت معدودة من قبله في فنون البديع.

على أن عبد القاهر الجرجاني لم يكن يجعل البديع علما مستق، بل إنه لم يكن يجعل فنون البديع إلا صورا من صور البيان، تدخل في إطار نظرية النظم مثلما تدخل صور البيان، ولهذا فإنه يسلك المزاوجة، والعكس، والتقسيم، والسجع، والاستعارة، والتشبيه في عقد النظم، ويجعلها من الذي يتحد في الوضع، ويدق فيه الصنع، بل إنه ليمتدحه بأنه النمط العالي، والباب الأعظم، والذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه، ومما هو أصل في أن يدق النظر، ويغض المسلك في توخي المعاني: أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن يكون حالك فيها حال الباني، يضع بيمينه في حال ما يضع بيساره هناك، وفي حال ما يبصر مكانا ثالثا ورابعا يضعهما بعد الأولين. [1]

فمن المزاوجة قول البحتري:

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى *** أصاخت إلى الواشي فلج بها الهجر

ومن العكس قول سليمان بن داود القضاعي :

فبينا المرء في علياء أهوى *** ومنحط أتيح له اعتلاء

وبينا نعمة إذ حال بؤ *** س إذ تعقبه ثراء

ومن التقسيم - وخصوصا إذا قسمت ثم جمعت - قول حسان بن ثابت:

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم *** أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجينة تلك فيهم غير محدثة *** إن الخلائق - فاعلم - شرها البدغ

ومن تشبيه شيئين بشيئين قول الفرزدق:

والشيب ينهض في الشباب كأنه *** ليل يصيح بجانبيه نهار

1-الإمام عبد القاهر الجرجاني :دلائل الإعجاز ، تعليق محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000، ص 66

على أن عبدالله بن المعتز – وإن لم يكن مقصده من كتابه هو وضع المعيار الحقيقي للشاعر في نظمه، أو الأديب في نثره، بل كان مقصده هو الرد على من يلهجون باستخدام البديع أنه أصيل في اللغة العربية – إلا أنه كان شاعرا حساسا، يعرف ما الفنون البديع من أثر في نفوس السامعين، ولكنه — في الوقت نفسه – كان يعيب الإكثار منها، والإفراط في تتبعها، ويفهم من هذا أن معيار الجودة عنده إنما هو: بحسن موقع هذه الألوان البديعية من الكلام، وإنما يكون ذلك إذا جاءت مناسبة لمكانها من الجملة أو البيت، دون عمد أو قصد من الأديب أو الشاعر.

وإذا كان أصحاب البلاغة العربية الخالصة قد وجدوا في عبد الله بن المعتز مدافعا لهم عن مذهبهم وطريقتهم، فلقد وجد المتفلسفة ممن يجرون وراء معايير البلاغة اليونانية في قدامة بن جعفر المتوفى سنة 337 هد مؤيدا لمذهبهم، ومدافعا عن طريقتهم؛ فقد تجرد هو الآخر لتأليف كتابه "نقد الشعر" مبينا من أول صفحة من كتابه أنه: لم يجد أحدا وضع في نقد الشعر، وتخليص جيده من رديئه كتابا، وأنه قد وجد الناس يخبطون في ذلك منذ تفقهوا في العلم، وقليلا ما يصيبون، وكأنه بهذا يقول: إن نقد الشعر علم لم يستطع فهمه أحد من قبله؛ لأنه لا يكفي – في نقد الشعر – أن تورد ألوانا من فنون البديع، مستدلا على وجودها في الشعر الجاهلي والإسلامي، والقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وكلام الصحابة، وإنما النقد الحقيقي للشعر هو: أن تميز جيده من رديئه. ولهذا فإنه قد ذكر هدفه من تأليف كتابه، وهو: ذكر أسباب الجودة وأحوالها؛ ليكون ما يوجد من الشعر قد اجتمعت فيه الأوصاف المحمودة كلها، وخلا من الخلال المذمومة بأسرها، يسمى شعرا في غاية الجودة، وما يوجد بضد هذه الحال يسمى شعرا في غاية الرداءة، وما يجتمع فيه من الحالين أسباب ينزل له اسم بحسب قربه من الجيد أو من الرديء، أو وقوفه في الوسط الذي يقال لما كان فيه صالح، أو متوسط، أو لا جيد، ولا رديء"[1]

وفي القرن الرابع الهجري نجد عصر الموازنة بين الشعراء، والتوسط بينهم وبين خصومهم، ومن الكتب التي اهتمت بالبديع في تلك الفترة: كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة 392 هـ. وقد سرد القاضي الجرجاني في هذا الكتاب ألوان البديع التي كانت دائرة حتى عصره، وهي: التجنيس، والمطابقة، وجمع الأوصاف، والتقفية، والترصيع.

غير أن القاضي الجرجاني لم يورد هذه الألوان البديعية لأنه يجعلها من معاييره البلاغية والنقدية في وساطته بين المتنبي وخصومه، وإنما أوردها ليبين أنها من ألوان الصنعة التي أغرم بها المحدثون — كأبي تمام – فأكثروا منها، فباعدت بينهم وبين طبعهم، فلم يسترسلوا له.

1– قدامه بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق د، محمد عبد المنعم ، مكتبة الكليات الأزهرية. 1400هـ– 1980م ، ص 16 ،17 .